

معارضة بحث الإشارات العلمية في القرآن الكريم: مناقشة علمية

كارم السيد غنيم

أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر (بالقاهرة)، عضو اتحاد كتّاب مصر، أمين عام جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بمصر (*).
بريد إلكتروني: karemghoneim@gmail.com

استلام ٢٠١٢/١٢/١٤، الموافقة والنشر: الإثنين، ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٧، الموافق ٢٠١٥/١٢/٣١

الموجز

لقد أضحت نتائج دراسات وبحوث الإشارات العلمية للآيات القرآنية ضرورة في الدعوة الإسلامية، وخصوصاً في المجتمعات غير المسلمة، المجتمعات المتقدمة علمياً وتكنولوجياً، وبالرغم من ذلك فلا يزال البعض يعارض هذا المنحى، سواء عن جهل به أم عن خوف من تحديث أساليب الدعوة. والبحث الحالي استهدف حصر كلام هؤلاء في حُجج محددة... أما المنكرون لهذا الاتجاه في بحث الإشارات العلمية للآيات القرآنية فأبرزهم: أبو إسحاق الشاطبي، محمد الذهبي، محمد رشيد رضا، محمد المراغي، عبدالكريم الخطيب، أمين الخولي وعائشة عبدالرحمن... وتتنحصر حجج هؤلاء في ثلاث، هي: (١) القرآن نزل لفهمه العرب في الصدر الأول من الإسلام، وإن علينا معاشرة المسلمين أن نحذو حذوهم فيما فهموه من آياته بحسب مدلولات ألفاظه المفهومة... (٢) القرآن لا شأن له بالعلوم الطبيعية، فهو لم ينزل ليحدث الناس عن نظريات العلوم، وأنواع المعارف، وإنما هو كتاب أنزل للناس للإرشاد والهداية وبيان التكليف وأحكام الآخرة... (٣) "التفسير العلمي" للقرآن يعرّض القرآن للدوران مع وسائل العلوم في كل زمان ومكان. والكشوف العلمية والبحوث الكونية ما هي إلا فروض ونظريات، يعتقد رجال العلوم لفترة من الزمان في صحتها ثم لا يلبثون بأنفسهم أن يبطلوها، ومن ثم فلا يجوز للمسلم الغيور على قدسية القرآن أن يقحم آياته في أشياء ومعارف تتغير وتتبدل... وقد ناقش البحث الحالي هذه الآراء ودحض هذه الحجج بأسلوب علمي دقيق، وأكد أهمية دراسة الآيات القرآنية ذات الإشارات العلمية.

الكلمات المفتاحية

التفسير العلمي؛ الإعجاز العلمي؛ الحقيقة؛ النظرية؛ الفرض؛ الدعوة؛ الأمة؛ الشريعة؛ الكون؛ الذرة؛ الطبيعة؛ الضوء؛ السماء؛ الرياح.

١. المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن ختاماً لكتبه ورسالاته إلى البشر أجمعين، وأودع فيه من الأسرار ما لا ينقضي وما لا ينتهي إلى يوم القيامة... الحمد لله الذي جعل القرآن معجزة خالدة لخاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، معجزة عقلية ذهنية علمية، معجزة اكتملت فيها كافة جوانب الإعجاز: في اللغة، في البيان، في الإخبار بما فات، وما يجري وما هو آت، معجز احتوت من الأمور العلمية والمسائل الكونية والقواعد السياسية والأسس والكليات الاقتصادية والتفصيلات الاجتماعية والحقوق الإنسانية والنظم البشرية... ما لا يستطيع أي مخلوق أن يأتي بمثله على مرّ الزمان... وسيظل القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، ويرهانه الباقي، منذ نزل بين أناس فصحاء، وعلى قوم بلغاء، ولطالما يتلى بين باحثين وعلماء...

ونحن في زمن الكشوف العلمية، والاختراعات التكنولوجية، في زمن ثورة المعلومات والهندسة الوراثية، وارتداد الفضاء والاتصال بالكواكب الأخرى وزيارتها، في زمن "القرية الواحدة"، يعرف فيه القاصي الداني، ويتصل فيه أهل القطب بأهل اللب، بل نحن في زمن "الحجرة الواحدة" بفضل ثورة الاتصالات العارمة... نحن في الزمن الحاضر علينا أن نوظف هذه العلوم والمعارف في تفسير آيات كتاب الله المجيد، وإن لم نفعل فقد قصرنا تقصيرا يحاسبنا الله عليه، وإن لم نفعل فكيف بمن سيأتون بعدنا من أجيال يحترمونا أو يجلوننا، كيف يحترمون أو يجلون جيلاً لم يعط في خدمة القرآن - والدعوة الإسلامية عموماً - عطاء غيره ممن سبقه من أجيال..!!

وبالرغم من أن نتائج دراسات وبحوث الإشارات العلمية للآيات القرآنية أضحت ضرورة في الدعوة الإسلامية، وخصوصاً في المجتمعات غير المسلمة، المجتمعات المتقدمة علمياً وتكنولوجياً، فإن البعض لا يزال يعارض هذا المنحى في الدراسات والبحوث، سواء عن جهل به أم عن خوف من تحديث أساليب الدعوة، وقد درجوا على أساليب معروفة قديمة كانت صالحة لعصور سابقة^(١)... ولما كان المعارضون لهذا الاتجاه البحثي- قداماهم ومحدثوهم- ليس لهم نصيب واضح من المعارف الطبيعية أو العلوم المدنية، وإنما معظمهم أصحاب معارف وعلوم نظرية فحسب، فإننا وضعنا البحث الحالي مستهدفين حصر كلام هؤلاء في نقاط، أو حُجج، محددة، ودحضها بعد الوقوف عليها جيداً ومناقشتها، ولا نبتغي في هذا سوى مرضاة الله بخدمة كتابه العظيم، والسعي لنشر دينه الحنيف في أرجاء الأرض قاطبة. ولا ندعي أننا أتينا على الموضوع بجميع تفاصيله، وإنما نقدم ما أفاء الله به علينا، وما أسعفتنا به المراجع وما سمح به الوقت... ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {٨٥} [سورة الإسراء].

٢. آراء رواد المنكرين لبحث الإشارات العلمية في القرآن

المنكرون لاتجاه استعمال نتائج الكشوف العلمية والبحوث التجريبية في تفسير أو تفهّم الآيات الكونية الواردة بالقرآن ليسوا بالكثرة التي ينتشر بها علماء الفريق الثاني، وهو فريق المشجعين والداعمين والعاملين في هذا المجال...

٢.١. أبو إسحاق الشاطبي

لعل أبو إسحاق الشاطبي^(**) من أقدم المنكرين لهذا الاتجاه في تفسير آيات القرآن، وقد بسط القول في إنكاره، والردّ على القائلين بهذا الاتجاه. يقول الشاطبي (في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة"): إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم التطبيقات والتعاليم (أي: الرياضيات والهندسة وغيرها)، والمنطق وعلوم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من أهل الفنون، وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم (أي: تمّ ذكره في كتابه "الموافقات") لم يصحّ... ثم يضيف الشاطبي إلى هذا ما ينفي به حق القائلين بالتفسير العلمي، فيقول: وإضافة إلى هذا، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف الناس بالقرآن، وبعلمه، وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحدهم في شيء من هذا المدعي... سوى ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدلّ على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا...

ثم عرض الشاطبي لأدلة الداعين إلى "التفسير العلمي" وأخذ يدحضها مركزاً على مستندهم ويتمثل في الآيتين: قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ {٨٩} [سورة النحل]. وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ {٣٨} [سورة الأنعام].. وقال بأن المقصود بالتبيين هنا هو إظهار أحكام التكاليف، والتعبيد، وفي الآية الثانية قال بأن الكتاب المقصود هنا هو "اللوح المحفوظ" ولم يقل - كما يقولون - بأنه القرآن الكريم... ومما يُذكر أن الشاطبي هذا من علماء القرن الثامن الهجري، وهو إلى جانب ما أورده (في كتابه "الموافقات") جعل الاستعانة على فهم القرآن الكريم مقصورة على العرب خاصة، وليس إلى غيرهم. وكان مما قاله، ونقله عنه أحمد العمري^(١): (إن هذه الشريعة أمية لأمة أمية). ويعقب العمري على هذه المقولة بقوله: جعل الشاطبي هذا القول قاعدة، دخل منها إلى أن الشريعة

جارية على مذاهب العرب، وبنى على ذلك أن كثيرا من الناس قد تجاوزوا في الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كل علم من العلوم على النحو الذي ذكرناه في نص قول الشاطبي في الفقرات السابقة.

ثم إن صاحب كتاب "القرآن يتحدث" (٣) يردّ على الشاطبي مقولته "هذه الشريعة أمية لأمة أمية" من وجوه: (١) إن إطلاق "الأمية" على الشريعة مجازفة لا تستند إلى أي دليل، خاصة وأن الكلام إنما يدور حول العلوم المندرجة في القرآن الكريم، ومن البدهة أن علوم القرآن لا تدخل تحت حصر، لأنه كلام الله تعالى، والحصر من صفاتنا لا من صفات القرآن... (٢) إن أحدا لم يدع استنباط جزئيات العلوم الكونية من القرآن، مثل الرياضيات والفلك، وإلا لكان القرآن في مادته لا يخرج عن مادة أي كتاب من تأليف البشر، بل إن المناقشة تدور حول موضوع آخر غير هذا، وهو أن التبخر في العلوم الكونية يكشف لنا عن وجوه الإعجاز ما لم نكن نعلمه في عصرنا... (٣) إن كان بعض الذين طبقوا المنهج قد جانبهم الصواب، فإن هذا يحدث لكل من يعالج قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل العلمية التي تقبل النقاش، فالعيب ليس في المنهج، وإنما العيب فيمن تصدوا لتطبيقه، ولا أهمية عندهم لذلك... (٤) الاعتراض على من قال: إنه يستنبط العلوم من القرآن الكريم ليس بحجة، ولا تحجير على فضل الله تعالى، ولا يوجد اثنان من العلماء يتساويان في فهم كتاب الله عز وجل...

ومن قبل هذا، انبرى من المفسرين المحدثين محمد الطاهر بن عاشور (في تفسيره "التحرير والتنوير") (٤) إلى تنفيذ مقولة الشاطبي بأن "الشريعة أمية لأمة أمية"، فقال: إن هذه المقولة واهية لوجوه: (١) إن ما بناه عليه، يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال، وهذا باطل. بقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعُغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {٤٩} [سورة هود]، فهذا تصريح بأن القرآن يحتوي كثيرا من الحقائق التي يجهلها قومه، والتي هي من قبيل أنباء الغيب والمعجزات... (٢) إن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، وهو معجزة باقية، فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة... (٣) إن السلف قالوا: إن القرآن لا تقتضي عجائبه، يعنون معانيه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه، بانحصار أنواع معانيه... (٤) إن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني - مع إيجاز لفظه - ما لم تف به الأسفار المتكاثرة... (٥) إن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداءً لا تقتضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لديهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيا لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام...

ونطالع الآن رأيا للشيخ/ محمد الغزالي (ت ١٩٩٦م/١٤١٦هـ) بخصوص مقولة الإمام الشاطبي (إن هذه الشريعة أمية لأمة أمية) (٥) يقول رحمه الله: هناك قضية مهمة وردت فيما سبق، وهي: قضية أمية الأمة، وأمية الشريعة، التي أتى الشاطبي على ذكرها.. وهي قضية خطيرة، إذا أخذناها على إطلاقها فإنها تؤدي إلى محاصرة العقل.. فهل يُعقل أن تكون هذه "الأمية" خالدة أم أنها مرحلة مؤقتة، كان العرب عليها، ومن ثم انتهت وأصبحت الأمة تكتب وتحسب؟ وأرى أن الأمة، في مرحلة من حياتها، قد تكون أمية لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، ثم يتغير حالها إلى مرحلة أخرى، فتصبح أمة عالمة قارئة.. فهل يمكن أن تبقى الأمة متوقفة على الوسائل الأمية في النظر والحكم والعلم؟ الأمة اليوم أصبحت تقرأ وتكتب وتحسب.. فالتقرير على أن "الأمية" صفة قسرية أو ملازمة للأمة، وأن الأحكام يجب أن تبقى مناسبة لمرحلة الأمية، أظن أنه أمر يتعارض مع طبيعة الحياة، وصيرورتها، كما يتعارض مع خلود الرسالة وقدرتها على الاستجابة لدواعي العصر... وبواصل الشيخ كلامه، فيقول: وأمر الإصرار من بعض العلماء على "الأمية" عجيب! وهو ما أدى إلى التعسف والتوقف عند بعض المفهومات وعدم تجاوزها.. "إننا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب" (٦) ! لكن هل هذا يعني أن تبقى الأمة أبدا لا تقرأ، ولا تكتب، ولا تحسب؟ وهل هذا يعني أيضا أن تبقى بعيدا عن الكسب العلمي؟ وكانت أول آية نزلت تفرض التعلم والتحول إلى القراءة والكتابة؟! والسؤال، أيضا، بعد نزول القرآن: هل تبقى الأمة أمية؟ لقد كانت أمة أمية، ثم جاء هذا العلم المزدوج المضاعف الكثير في كتاب الله، فكيف تبقى أمية بعده؟ هذا مستحيل... والسؤال هو: هل كلمة "أمية" التي وردت في الحديث نسبة للجهل أو نسبة للأمة؟ فاليهود يرون أن "النبي الأمي" يعني: النبي المبعوث من غيرهم، أو من بقية العالم.. ويُخيل إلى أن المقصود بـ "النبي الأمي": النبي الذي خرج بعيدا عن الدائرة التي كان يؤخذ منها الأنبياء، وهي إسرائيل، وإن كان هناك أنبياء عرب... ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾ (٢٠) [سورة البقرة]... ولما سأل الرسول ﷺ أبي بن كعب (٧) عن أفضل آية عنده، قال: آية الكرسي. قال له: "ليهنك العلم أبا المنذر" (٨).

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَوَلَّوْا رُءُوسَهُمْ إِلَى الرُّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (٨٣) [سورة النساء].. فالعلم هو صفة القرآن.. وصفة المشتغلين به، فكيف يقال: "إن الأمة أمية" مع القرآن؟ هذا مستحيل. والقرآن نفسه وجه لاقتحام أسوار الحياة والتغلغل في أسرارها، ومجال العلم الإلهي فيها والحكمة الإلهية فيها. فكيف يقال: إن الرسالة أمية؟! ... وتعقبا على ما ذهب إليه الشاطبي، أقول: إن العرب إذا كانوا في ذلك العصر أمة أمية، فالأمية لا يمكن استمرارها.. هذا شيء. والشئ الآخر: إن الخطاب ليس للعرب ولكنه للناس جميعا - المتعلم وغيره - كما أنه ليس الزمان واحد فقط... وكانت العرب أمة أمية.. وكانت الفرس والرومان هم المثقفون... وعندما أنظر إلى الفرس والروم أجد أنه كانت لديهم جهالات ربما لم تكن موجودة عند العرب... وربما أن العرب أحسن أخلاقا من الروم والفرس، في جاهليتهم تلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (١٢٤) [سورة الأنعام]..

وبواصل المؤلف كلامه فيقول: قول الرسول ﷺ: (إننا أمة أمية) - أي تجهل الكتابة والحساب في عصر معين - لا يقتضي أن تبقى أمية دائما، والقرآن خطاب خالد مجرد من حدوث الزمان والمكان. ولا أدري: ما مدى صحة حديث: (نحن أمة أمية لا نقرأ ولا

نحسب) ؟. الحديث موجود في كتب الحديث، لكنني لست خبيراً بالرجال، ولا بد من التحقيق في الموضوع، والجمع بين الآثار... لكن هناك رأي لا بد أن أذكره من باب الأمانة، وهو أن محمد أحمد عثمان (رئيس جمعية مكارم الأخلاق، ووكيل الجمعية الشرعية في مصر)، ذكر حديث السحر، وقال: الحديث سنده فيه كلام.. ووضح أن فلانا عن أبيه ضعيف.. أي أنه ضعف السند الذي روى به البخاري حديث السحر.. فارتببت فيما يقوله الرجل من ناحية الإسناد، حتى وقع هذه السنة كتاب في يدي لجماعة من المغاربة يكتبون في السنة (وهم متخصصون في الكتاب والسنة)، وهم جماعة الغماري (أحمد وصديق الغماري..). فوجدت بحثاً في الأسانيد استوقفتني: الحارث الأعور متهم عندنا بالتشيع، ونعتبره ضعيفاً، لا نقبل حديثه... وكان من بعض من طعن فيهم الأعمش^(٩)...

ويواصل المؤلف كلامه فيقول: واستبقيت الأمر في نفسي إلى أن قابلت الشيخ/ عبدالفتاح أبو غدة (وهو من علماء الحديث)، قلت له: أريد أن أعرف منك حكاية قرأتها، وأنا بحاجة لأن أعرفها.. الذهبي^(١٠).. عندما مرّ بحديث: (من عادي لي وليا فقد أذنته بالحرب)^(١١).. قال: لولا جلالة الملك الحافظ أبي عبد الله البخاري^(١٢)، النفس فيها شيء من هذا الحديث، لكني لا أكذبه.. فالذهبي لا يريد أن يقول إن في الحديث كلاماً، ولكن هناك من قال: إن في رواية البخاري كلاماً.. ذكرت له فلانا وفلانا.. ونفس الأسماء التي وردت في كتابة المغاربة.. فسكت الشيخ/ عبدالفتاح أبو غدة قليلاً ثم قال: هذه الأسماء أثرت حولها شكوك لكن تجاوزوها وليس لها قيمة.. قلت له: لماذا؟ إذن، كان هناك شخص متهم بالوضع؟!... وفي رأيي أن الكلام في بعض رجال الصحيحين له أصل، والذين رفضوا بعض أحاديث في البخاري أو مسلم^(١٣).. لهم عذرهم... ففكرة أمية الأمة، وأمية الشريعة، والإصرار على بقاء المرحلة البدوية واستمرارها مرفوض.. فأمة تستقبل القرآن لا بد أن تكون أميتها قد زالت بهذا القرآن نفسه.. القرآن لم ينزل على العرب وحدهم، ولم ينزل لفترة معينة، وإنما هو خالد عبر الزمن.. فكيف يمكن أن ينتفع أصحاب الكسب العلمي والمعارف العلمية في المستقبل إذا اعتبر القرآن خطاباً أمياً للأميين؟ والأمر العجيب أن الشاطبي، على الرغم من قدراته العقلية في تحديد مقاصد الشريعة، قال بهذا !!

٢.٢. محمد الذهبي

الدكتور/ محمد حسين الذهبي^(١٤) هو الآخر من رواد التيار المناوئ لنزعة ما يسمى "التفسير العلمي" للآيات الكونية الواردة بالقرآن الكريم. ولكنه يعرف هذا التفسير بأنه العمل الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.. وهناك عدد من الجوانب التي ردّ بها الذهبي دعوة القائلين بالتفسير العلمي، ساقها الدكتور/ سعاد يلدرم^(١٥). في بحث له، وهي آراء بثها الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون"، ونوجزها فيما يلي: (١) الناحية اللغوية: تغيرت ألفاظ قرآنية وتوسعت دلالاتها على مرّ الزمان، وتعددت معاني اللفظ الواحد، فبعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن... فهل يعقل أن نتوسع في فهم ألفاظ القرآن توسعاً يجعلها تدل على معان جدد باصطلاح حادث؟... (٢) الناحية البلاغية: موجز القول فيها أن الذهبي توصل إلى ضرر البلاغة القرآنية من جهة التغيير العلمي للقرآن. وحجته هي أن الذين خاطبهم الله بهذا القرآن وقت نزوله إذا كانوا يجهلون هذه المعاني، رغم أن الله يريد لها من خطابها إيهاهم، لزم أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب؟ وإن كانت العرب تعرف هذه المعاني وقت نزول القرآن بين ظهرانيهم، فلم تظهر نهضة العرب العلمية منذ نزل القرآن؟... (٣) الناحية الاعتقادية: وتتخلص في أن قواعد العلم ونظرياته لا قرار لها ولا بقاء، فإذا ذهبنا إلى تقصيد القرآن ما لم يقصد إليه من نظريات ثم ظهر بطلانها، فلسوف يتزعزع اعتقاد المسلمين في القرآن..

هذا، وإن كان الدكتور/ الذهبي قد شدد على المسرفين في التفسير العلمي للقرآن، إلا أنه بدا غير معترض على الفكرة في حدّ ذاتها، لأنه قال في أواخر ما كتب: وحسبهم أن لا يكون في القرآن نص صريح، يصادم حقيقة علمية ثابتة. وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدّ ويجدّ من نظريات وقوانين علمية، تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل من الصحة.

٢.٣. محمد رشيد رضا

علي الرغم من أن بعض الباحثين اعتبر الشيخ/ محمد رشيد رضا^(١٦) ممن أجازوا لغة "التفسير العلمي للقرآن"^(١٧). إلا أننا طالعنا ما أوضح لنا أنه من الممانعين لهذا الاتجاه، باعتباره صارفاً عن القرآن وهدية وتشييعه، وينبغي على الذين سلكوا هذا المسلك الذي يخرج بالتفسير عن وظيفته، ويعمد إلى تأويل القرآن على غير تأويله، كالرازي في تفسيره، ومن تأثر بخطاه، أن يعيدوا النظر في ذلك. وقد عرض محمد رشيد رضا آراءه هذه في مقدمة "تفسير المنار".

٢.٤. محمد المراغي

الشيخ/ محمد مصطفى المراغي^(١٨) يقول: يجب ألا نجرّ الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها. وحينما ألف الدكتور عبد العزيز إسماعيل كتاب "الإسلام والطب الحديث"، عرضه على الشيخ/ المراغي، فأثنى الشيخ في مقدمته على المؤلف وحمد له جهوده، ولكنه لم يوافق على مسلكه في تحميل الآيات

القرآنية ما لا تتحمله، فقال: لست أريد من هذا - يعني ثنائه على الكتاب ومؤلفه - أن أقول إن الكتاب الكريم (أي: القرآن) اشتمل جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها، بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه. هذا، وكان الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق) والشيخ محمد المدني، والدكتور/ محمد عبد الله دراز من علماء هذا التيار، أيضاً.

٢.٥. عبد الكريم الخطيب

كان الدكتور/ عبد الكريم الخطيب (*****) يهزأ بنزعة "التفسير العلمي" للقرآن الكريم، فقد قال في تحقيق صحافي (١٦): إنه نوع من التهريج والادعاء (!!)) يقوم به أصحابه فيلصقون بالقرآن أشياء أشد ما تكون بُعداً عنه. ويضرب مثلاً بالآية القرآنية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ {٤٧} [سورة الذاريات]، فيقول: إن أصحاب هذا التفسير يتحدثون عن التمدد والتزايد في الأكوان، فمن أين جاءوا بهذا؟ ويأتي بمثال آخر هو الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ {٤١} [سورة الرعد]. وقد قال هؤلاء عن ذلك بتأكل الشواطئ البحرية... ويؤكد الخطيب أن العلم متغير لا يثبت على حال، حيث تنقض النظريات القائمة بنظريات حديثه..

٢.٦. منكرون آخرون

لا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر رائدين من رواد المنكرين، هما الشيخ/ أمين الخولي (ت ١٣٨٦ هـ)، وبنيت الشاطي (الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن) (ت ١٤١٩ هـ)، وكتبهما زاخرة بذلك...

وخلاصة حُجج المعارضين لاتجاه "التفسير العلمي" أو بحث الإشارات العلمية للقرآن الكريم:

(١) إن القرآن نزل لفهمه العرب في الصدر الأول من الإسلام، وإن علينا - معاشر المسلمين - أن نحذو حذوهم فيما فهموه من آياته البينات بحسب مدلولات ألفاظه المفهومة، لأنهم عرب أدري بلغتهم، وأقدر على فهم معاني كلماتها منا... ولما كانت البلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال، فإن التفسير العلمي للقرآن، يضرّ ببلاغة القرآن، لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله، إن كانوا يجهلون هذه المعاني، وكان الله يريدنا من خطابها إياهم، لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب!! وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم تظهر نهضة العرب العلمية من ليلة نزول القرآن الذي حوي علوم الأولين والآخرين؟ (١٧).

(٢) إن القرآن الكريم لا شأن له بالعلوم الطبيعية، فهو لم ينزل ليحدث الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف، وإنما هو كتاب أنزل للناس للإرشاد والهداية وبيان النكاليف وأحكام الآخرة... إن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ ؓ أنه قال: يا رسول الله ﷺ: إن اليهود تسألنا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص حتى يعود كما كان؟. فأنزل الله هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (١٨٩) [سورة البقرة]. (١٨)

(٣) إن "التفسير العلمي" للقرآن يعرض القرآن للدوران مع وسائل العلوم في كل زمان ومكان. والكشوف العلمية والبحوث الكونية ما هي إلا فروض ونظريات، يعتقد رجال العلوم فترة من الزمان في صحتها ثم لا يلبثون بأنفسهم أن يبطلوها. ومن ثم فلا يجوز للمسلم الغيور على قدسية القرآن أن يقم آياته في أشياء ومعارف تتغير وتتبدل، حتى إننا نرى ما كان حقيقياً بالأمس يصبح خطأ اليوم، وما هو حقيقي اليوم قد يصبح خطأ غداً. فكيف نستخدم علوماً هذا شأنها في تفسير آيات خالدة باقية لا يتطرق إليها أدنى أو تبدل؟!.. إننا إذا ذهبنا إلى تقصيد القرآن ما لم يقصد من نظريات، ثم ظهر بطلان هذه النظريات، فسوف يتزلزل اعتقاد المسلمين في القرآن الكريم، لأنه لا يجوز للقرآن أن يكذب اليوم ما صححه بالأمس (١٩).

هكذا يتضح لنا أن المانعين أو المنكرين لدراسة "التفسير العلمي" لآيات القرآن ذات الإشارة الكونية، يكتفون بالوقوف عند المعاني الظاهرية فقط لهذه الإشارات دون الدخول فيما تتضمنه هذه الإشارات أو تدل عليه من سبق علمي أو بيان لحقيقة علمية لم يتوصل العلم إليها إلا حديثاً، بل يرون هذا العمل صارفاً عن الغاية الرئيسية للقرآن، وهي: هداية الإنسان وإصلاح حاله..!

٣. مناقشة الحُجج ودحضها:

نتفرغ الآن لدحض حُجج المانعين للتفسير العلمي في القرآن، والمعارضين لبحث أوجه الإعجاز العلمي فيه، التي ذكرناها، كما يلي:

٣.١. دحض الحُجة الأولى

في دحض هذه الحُجة يجب أولاً أن نوضح ثلاث مسائل:

٣.١.١. المسألة الأولى

إن القرآن الكريم نزل للبشرية حتى يوم القيامة على اختلاف ثقافات عصورها وتنوع علوم أهلها، وهو إذ يخاطب العقول على اختلاف المواهب والثقافة والتدبير، فإن كل عقل يأخذ منه ما يطيقه وما ينتفع به، فإذا عجزت بعض العقول عن إدراك بعض المعاني لآيات القرآن وجب علينا أن نستعين بكبار العلماء والباحثين المتخصصين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل]، وكما استنبط العلماء والفقهاء والباحثون من آيات القرآن الكريم معاني وأحكاما لم يعرفها السابقون، ذلك أن القرآن كما عبّر عنه رسول الله ﷺ: (... حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشعب منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد- أي التلاوة - ولا تنقضي عجائبه...) رواه الترمذي في سننه. فالدارس للقرآن الكريم يأخذ منه بمقدار موهبته الفكرية وإيمانه القوي، وثقافته العلمية، وتفكيره العميق، وكلما نما العقل البشري، واتسعت مداركه، وتنوعت ثقافته، وتعددت تجاربه، وغزرت معارفه، أدرك من القرآن ما لم يدركه سواه... !!

٣.١.٢. المسألة الثانية

إن من أوجه إعجاز القرآن الكريم إعطاؤه معاني متعددة للعبارة الواحدة الواردة فيه: وأكثر من هذا، فإننا نجد أحيانا عبارة واحدة تعطينا معنى خاصا، وفي الوقت نفسه تعطينا ما يبدو مضادا لهذا المعنى. مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣] وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [٣٥] [سورة يس]. فالمعنى الأول المفهوم من النص أن الله خلق لنا الثمر لنأكل منه وهو الذي صنعه ولم يصنعه بشر، أي إن "ما" في ﴿وما عملته أيديهم﴾ نافية لفعل البشر في الصنع والخلق لنأكل منها طازجة، ولنأكل مما صنعت أيدينا من هذه الثمرات، بالطهي أو العصير أو التلميح أو التحفيف أو التقديد، أي إن "ما" - التي أشرنا إليها سابقا - هنا موصولة وليست للنفى. وأصبح للآية معنيان، وربما لها أكثر، وكل منهما صحيح، وعطاء الله لا ينفد... وهناك آيات عديدة تعطينا معاني عديدة، يظهر بعضها في زمن، ويظهر بعض ما فيها في أزمان متوالية، تبعا لازدياد فنون الثقافة والكشف العلمية المتوالية، ويجب على العلماء المسلمين المعاصرين إيضاح هذه المعاني بحسب ما لديهم من علوم ومعارف حديثة تخدم مفاهيم هذه الآيات.

٣.١.٣. المسألة الثالثة

حينما نستخدم العلوم الكونية والمعارف الطبيعية في تجلية آيات قرآنية وبيان أوجه العظمة ونقاط الإعجاز فيها، إنما نفعل كما يفعل اللغويون وأصحاب البيان، فاستخدام علوم اللغة العربية لبيان أوجه الإعجاز اللغوي القرآني لم يكن موجودا في عصر النبوة، بل ظهر في عصور متأخرة... والعلماء قاطبة يجمعون على استخدامها في بيان أوجه الإعجاز في القرآن، فلماذا نجيز لهؤلاء استخدام علومهم، ونحرم على علماء الكونيات والطبيعات أن يسخرها علومهم في تجلية جوانب الإعجاز العلمي للآيات الكونية في القرآن؟!... وفيما يلي أمثلة نوضح بها أن العلوم الكونية والمعارف الطبيعية لا تقل أهمية عن علوم اللغة العربية (التي لم يعترض أحد على استخدامها لبيان أوجه الإعجاز القرآني) في بيان وتجليه جوانب من إعجاز الآيات الكونية:

المثال الأول: حين يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [١٧] [سورة العاشية]، فهل الأمر الإلهي بالنظر إلى الإبل هو لمجرد مناسبتها لخطاب البدو والأعراب؟ فإذا كان هذا صحيحا فإن الدراسات الحديثة لا تزال تكشف عن معجزات أحياناً رائعة في ذلك المخلوق الرائع، وبالتالي نستطيع أن نثبت أنه قد خص بالذكر من بين ما لا يحصى من مخلوقات الله، كنموذج متميز ليتدبر في دراسته المتدبرون... هذا إضافة إلى أن النظر هنا ليس معناه نظر حدقة العين، وإنما النظر بمعنى التدبير والتبصر والدراسة والبحث...

المثال الثاني: يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [٣] [سورة المائدة]، فليس من الصحيح المقنع أن علة التحريم في لحم الخنزير هي ما تناقلته بعض التفاسير من أشياء يسهل الردّ عليها ودحضها، ومنها الرائحة الكريهة، أو أن الخنزير يتغذى بالأقذار، أو ما شابه هذه الأقوال، ولكن علينا - بعد إيماننا بتحريمه والامتنال للأمر الإلهي بالطاعة - أن نفهم ما أثبتته العلماء المعاصرون من حقائق تقرر أن تحريمه لعله مستقرة فيه، وليس لعله عارضة عليه بحل لحمه بزوالها (٢٠).

المثال الثالث: يقول الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [١٦] وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [١٧] وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [١٨] لَتَرَكِبِينَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [١٩] فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [٢١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَدِّبُونَ﴾ [٢٢] [سورة الانشقاق].. ففسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿لتركين طبقا عن طبق﴾ بالصعود الروحي من سماء إلى سماء، وفسرها آخرون بصعود رسول الله ﷺ إلى السموات، سماء تلو سماء، في رحلة المعراج العظيمة التي طوى فيها، هي ورحلة الإسراء، الزمان والمكان. هذا، وإن كان المسلمون قد اكتفوا ببعض التفاسير في عصورهم السابقة، فإن بعض التفاسير يشوبها الغموض فيما عرضته من شرح لهذه الآية، لذلك جاء نفر من العاملين في مجال بحوث الإعجاز العلمي للقرآن ليزيل هذا الغموض في الفهم، فإله يقسم ببعض ظواهر الكون الطبيعية التي خلقها بقدرته وأحكم فيها صنعته، الشفق: الوهج الأحمر الذي يتشتت من ضوء الشمس عقب غروبها أو قبل

شروقها، الليل: ظلام الفضاء الكوني وما يحتويه من أسرار، القمر إذا اتسق: اكتمل وأصبح بدرًا.. جواب القسم هو "لتركين طبقا عن طبق"، أي لتسافر من مرحلة إلى مرحلة في عصر قادم، ولتصعدن من طبقة إلى طبقة في الجو (تروبوسفير - أيونوسفير - إكسوسفير) إلى غير هذا في رحلة اختراق طبقات الجو إلى الأجرام السماوية المجاورة، فكان رائد الفضاء يخترق طبقة تلو الأخرى، وهو إخبار بمستقبل سيحدث في حياة الناس، وهو السفر عبر الفضاء واجتياز الأجواء (٢١)...

المثال الرابع: يقول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ...﴾ {٢٢} [سورة الحجر].. يمكن فهم هذه الآية بعدة مفاهيم، منها: (١) أن الله يرسل الرياح حاملة المطر الذي ينزل في الأرض فيحي موتها، فينبت النبات والثمار، في حين يشرح الكثير من المفسرين معنى الريح اللقاح بأنها كل ريح تأتي بخير، وعكسها الريح العقيم... (٢) ومن مفاهيم هذا الآية، أيضا، أن الرياح تحمل حبوب اللقاح (غبار الطلع) (Pollen grains) من أعضاء الذكورة في النباتات إلى أعضاء الأنوثة في أفراد أخرى من هذه النباتات، فيتم الإخصاب، فتثمر النباتات الثمار التي نأكلها ونحيا بها... (٣) ومن مفاهيم الآية، أيضا، أن الرياح تحمل الحشرات تلك التي تحمل حبوب اللقاح لتقوم بنفس العملية التي ذكرناها لنفس الغرض المذكور... (٤) ومن مفاهيم الآية، أيضا، أن الرياح تلقح التربة، أي تمدها بالعناصر اللازمة لخصوبتها، ومنها الأزوت الذي يوجد طبيعيا في الهواء... (٥) ومن المفاهيم الجديدة لهذه الآية: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ {٢٢} [سورة الحجر] ما أفاء الله به على الدكتور/ محمد جمال الدين الفندي (٢٢) - رحمه الله - حيث يقول: تثير الرياح السحاب، أي تكونه وتدفعه حيث تدأب على إمداده وتغذيته ببخار الماء الذي تحمله وتجلبه معها من البحار والمحيطات. وكذلك تغذيه بجسيمات صغيرة تسمى "نوى التكاثف"، ووظيفة هذا النوى هي تجميع جزيئات بخار الماء في مناطق إثارة السحب لتكوّن قطرات صغيرة من الماء، أو من بلورات الثلج. والفرق بين السحابة التي تمطر والسحابة التي لا تمطر هو أن الأولى لها مدد مستمر من بخار الماء، ونوى التكاثف بواسطة الرياح أو الهواء الصاعد. أما الثانية فليس لها أي مدد. وينجم عن استمرار الرياح في (تلقيح) السحاب الذي تثيره ببخار الماء ونوى التكاثف نزول المطر. ومن هنا تكون "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ هي فاء السببية، أي نجم عن هذا التلقيح نزول المطر. أما قوله سبحانه: ﴿وما أنتم بخازنين﴾ ففيه إشارة إلى معجزة أخرى هي الدورة المائية بين السماء والأرض، حيث إن ماء المطر يعود مرة أخرى إلى المحيطات والبحار عن طريق الأنهار أو المياه الجوفية، وتعود الشمس فتبخر بعض ماء المحيط والبحر لتعود الدورة من جديد، وهلم جرا...

المثال الخامس: يقول الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ {٤} [سورة الطارق]، فما هي مفاهيم الحفظ الذي يقيمه الله على كل نفس حماية لها؟ (١) إن من مفاهيمه أن الله يحفظنا من الأخطار المحدقة بنا لأنه سبحانه ﴿خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ {٦٤} [سورة يوسف]، فهو يحفظنا دون أن ندري من أخطار لا ندركها... (٢) ومن معاني هذا الحفظ أن الله سخر بعض ملائكته لتسجل علينا أفعالنا وأفعالنا، ليجازينا عنها بما نستحقه من جزاء كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ {١٠} كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ {١١} {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ {١٢} [سورة الانفطار]... (٣) ومن معاني هذا الحفظ أنه على كل منا رقيب يحفظه من أن يدمر الآخرين، أو يعيث في الأرض فسادا إلا حين يشاء الله أن يجعل بعض الناس فتنة للبعض الآخر... (٤) ومن المعاني الحديثة لهذه الآية وهذا الحفظ، أن يقرر العلماء حقيقة وجود كرات الدم البيض (White blood corpuscles) بداخل جسم الإنسان، والتي مهمتها الدفاع عن الجسم إذا تسللت إليه الجراثيم الممرضة (Pathogens). وقد اتسعت البحوث على هذه الكرات وعلى وظائفها ودورها في هذا الحفظ، فيمكن الرجوع إلى مثل هذه البحوث لمن أراد التفصيل العلمي... (٥) ومن المعاني الحديثة لهذه الآية وهذا الحفظ، ما كشفه الأطباء من وجود خطوط دفاعية داخل الجسم تكافح الجراثيم الغازية له، منها على سبيل المثال: الشعيرات والمخاط في الأنف - إذا تسللت الجراثيم عن طريق الأنف - ودمع العين - إذا تسللت الجراثيم عن طريق العين - ودفاع اللوزتين - إذا تسللت عن طريق الفم - وغير ذلك كثير مفصل في كتب الطب الحديث (٢٣) .. (٦) ومن المعاني الحديثة أيضا، لهذه الآية وهذا الحفظ ما توصل إليه علماء الأحياء، وهو: أن الله سبحانه زود كل كائن حي بما يحفظه ويحميه في ميادين الصراع القائمة بين الأحياء، فزود الإنسان بعقل يحميه من عوامل الفتك والافتراس، وبه يستطيع تسخير كل ما هو كائن في الكون، كما أنه سبحانه زود السلاحف بالدروع، وزود الثعابين بالسّم، والغزلان بالخفة والسرعة، والنباتات الضعيفة بالأشواك... وهكذا كل كائن خلقه الله سبحانه زوده بما يحميه.

المثال السادس: يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ {١٣} [سورة غافر]، فالمعنى العام للآية هو أن الله سبحانه يرينا آياته حين وجبنا بعد حين وجبنا بعد جيل، وينزل لنا من السماء رزقا، ولا يعرف آيات الله العديدة ونعمه الجزيلة، ولا يتذكرها، إلا من آمن بالله ورجع إليه بالإنابة والمتاب. ولكن، ما المقصود بالرزق المنزل من السماء؟؟ (١) يقول المفسرون القدامى: إن الرزق المنزل من السماء هو ماء المطر، وهذا فعلا رزق عظيم يحفظ علينا حياتنا، من نبات وحيوان وإنسان، ولكن يمكن إضافة معان حديثة إلى مفهوم الرزق هذا... (٢) ومن المعاني الحديثة لهذا الرزق تلك الأشعة الحرارية التي تصلنا باعتدال من الشمس، فلو انقطعت عنا لماتت جميع الأحياء من شدة البرودة، ولتجمدت مياه المحيطات والبحار والأنهار، ومن ناحية أخرى، فإنه لو زاد مقدارها عن الذي تنزل به لتبخرت مياه جميع البحار والمحيطات، وبالتالي ماتت الأحياء من ذلك ومن شدة الحرارة... (٣) ومن هذه المعاني الحديثة تلك الأشعة الضوئية التي يعتمد عليها النبات في إنجاز عملية بنائه الضوئي (Photosynthesis) لغذائه الداخلي، وعلى النبات يحيا الإنسان والحيوان، وعلى الحيوان أيضا يحيا

الإنسان... (٤) ومن هذه المعاني الحديثة: رماد الشهب الذي يتساقط على الأرض، وتبلغ أعداد هذه الشهب عشرات الملايين في كل يوم، فتحترق حين ملامستها للغلاف الجوي، ويسقط رمادها على الأرض، فتزداد التربة خصبا وصلاحية للإنتاج والإثمار... (٥) ومن المعاني التي اهتمت إليها العلم الحديث لذلك الرزق: وجود غازات مثل ثاني أكسيد الكربون (Carbon dioxide) والأكسجين (Oxygen) والأزوت (Nitrogen)، وكلها ضروري وحتمي لحياة الكائنات الحية، نباتية كانت أم حيوانية... (٦) ثم إن من المعاني المقصودة للرزق هو ذلك الرزق الروحي المعنوي، ويتمثل في الكتب والرسالات السماوية التي نزلت على الرسل الكرام لهداية الناس وانتشالهم من جهالات وظلمات وضلالات الدنيا، فأحيت قلوبهم ونفوسهم...

المثال السابع: يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ {٤٧} [سورة الذاريات]، هذه الآية الكريمة فسرها الأقدمون تفسيراً صحيحاً سليماً منطقياً، ومجمل قولهم: إن هذا الكون بالرغم من اتساعه وبالرغم مما ضم وحوى من أجرام، فإن لدى الخالق العلي القدير المزيد والمزيد... ويقول الدكتور/ الفندي (٢٤) في معان حديثة تضاف إلى ما فهمه الأقدمون، بل تزيد من مفاهيم الآية: إن الناس في بادئ الأمر كانوا يظنون بمركزية الأرض للكون، وأن السماء تنتهي عند القبة الزرقاء، وأن النجوم معلقة غير بعيدة في تلك القبة، ثم عرف الناس فيما بعد: المجموعة الشمسية (Solar system) التي لا يزيد قطرها عن خمس ساعات ضوئية (الساعة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في ساعة واحدة بسرعه البالغة ٣٠٠ ألف كم / ثانية تقريبا، وتبلغ بليون كيلومتر تقريبا)، ثم امتدت أبعاد السماء إلى مجرتنا (Galaxy) التي سماها المسلمون "الطريق اللبني"، أو "سكة اللبانية"، وقطر هذه المجرة - أو الجزيرة الكونية (Cosmic island) - هو مائة ألف سنة ضوئية. ثم باستخدام المناظير الفلكية اكتشف الإنسان المجرات الأخرى وعرف أقرب المجرات إلى مجرتنا، وهي مجرة المرأة المسلسلة، وتبعد عنا بنحو ٧٠٠ ألف ساعة ضوئية... أما القبة الزرقاء فهي مجرد ظاهرة ضوئية تحدث في جو الأرض... ثم اتسعت السماء أمامنا حتى وصلت - في عصر الفلك الراديوي (Radioastronomy) - إلى حدود ٢٠ ألف مليون سنة ضوئية !!! نعم لقد كشفت لنا المناظير الراديوية جوانب كثيرة في التعبير الرائع الذي عبرت عنه الآية: ﴿فَلَا أَسْمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ {٧٥} وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ {٧٦} [سورة الواقعة]..

المثال الثامن: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَهُ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِنَبْتِهِمْ وَمِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ {١٢} [سورة فاطر].. من البيهيمي أن بعض الخلي تستخرج من البحر الملح، وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلي، أيضا، ولكن العلم والبحوث أثبتا غير ذلك. فالؤلؤ (Pearl) كما أنه يُستخرج من أنواع معينة من البحار، يُستخرج أيضا من أنواع معينة من صدفيات الأنهار، فتوجد اللؤلؤ في المياه العذبة في إنجلترا، وأسكتلندا، وما كان يسمى تشيكوسلوفاكيا، وفي اليابان.. ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس الذي يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة. ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من باندالاس في بورما العليا وفي سيام وسيلان. ومن الأحجار شبه الكريمة التي تستعمل في الزينة: حجر التوباز، وهو موجود في الرواسب النهرية في مواقع كثيرة ومنتشرة في البرازيل وروسيا، وكذلك الزيدكون، وهو حجر جذاب تقترّب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه تستخرج من الرواسب النهرية. اتضح، إذن، بالكشوف العلمية أن الحلية أصناف وأنواع وأشكال، وأنها من كل من الماءين: الملح والعذب، وليس من الملح وحده كما كان يظن الناس، بل اكتشفوا حديثاً ما أشار إليه القرآن منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد ...

المثال التاسع: يقول الله تعالى: ﴿تَخْرُجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ {٢٧} [سورة آل عمران].. أما ما فسرت به هذه الآية فهو موجود في كتب التفسير المعروفة، لكننا نرى أن هذه الآية تشير إلى "دورة الحياة والموت"، وهذه الدورة معجزة من معجزات الخالق التي يزرع بها الكون. وتتخلص هذه الدورة في تحول الماء وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين والأملاح غير العضوية الممتصة من التربة - في النباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتريا - وفي وجود الطاقة الشمسية، إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في الأحياء... والاتجاه المعاكس لهذه الدورة، أي الشق المضاد، هو تحول المادة الحية إلى مادة غير حية، أي تحول أجزاء من المادة الحية إلى طاقة ومواد أخرى غير مرغوب فيها هي النفايات، وقد يتحول الجسم كله إلى ذلك، وهذا إذا انسل منه سرّ الحياة ومات، فكل هذه المواد العضوية تتحول كيميائياً إلى مواد غير عضوية بسيطة جاهزة للدخول في تركيب مواد عضوية، والتحول إلى مواد حية جديدة.. وهكذا تتكرر الدورة من مادة حية إلى مادة غير حية، ومن الأخيرة إلى الأولى، أي الحي يخرج من ميت، والميت ينتج من حي، وسبحان ربّ المعجزات ومقدرها، سبحان الله الخالق القادر المبدع...!!

المثال العاشر: يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتَيْنَنَّكُمْ عَالِمَ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مَقَالٌ ذَرَّةً فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ {٣} [سور سبأ]. إن الإنسان منذ آلاف السنين وهو دائم التفكير في طبيعة المادة، وقد افترض الفيلسوفان الإغريقيان ديمقراط (Democritus) وليوسيپوس (Leucippus) منذ ٣٠٠-٤٠٠ سنة قبل الميلاد، أنه إذا شطر الشيء شطرين، ثم شطر كل منهما شطرين آخرين، وهكذا مرات، فإننا سنحصل في النهاية على الوحدة البنائية للمادة، وأطلقا على هذه الوحدة اسم "الذرة Atom"، أي: الجوهر الذي لا ينقسم، أو الجزء الذي لا يتجزأ... ثم تطور الفكر البشري في هذا الموضوع تطوراً كبيراً، عبر العصور المتواليّة... وجاء لوشميدت (Loschmidt) (١٨٦٥م) ثم

هيتروف (Hitrof) (١٩١٤م)، ستوني (Stoney)، ولسون (Wilson)، لينارد (Leonard)، رذفورد (Rutherford)، بوهر (Bohr)، هايزنبرج (Heisenberg)، نيوتن (Newton)، أينشتاين (Einstein)، فأصبحنا نعلم الآن أن الذرة لها مثقال، وأنها قابلة للانفلاق، وأن بها محتويات (أصغر منها) (٢٥) ... وإن جولة سريعة في كتب التفسير الشهيرة المتداولة لتوضح لنا تأويلات المفسرين لكلمة "ذرة" فمنهم من قال بأنها النمل الصغير، ومنهم من قال بأنها الهباءة (ويقصد بها دقائق الغبار في الجو، وتظهر بوضوح عندما يسقط شعاع شمس عليها خصوصا في حيز مظلم) .. هذا، وإن كان الناس قديما يقتنعون بهذه التفسيرات، فإننا الآن لدينا من المعطيات العلمية ما يوضح أشياء، أو على الأقل شيئا لم يكن معلوما مطلقا، وهو ما أشارت إليه الآية القرآنية بكلمات الله المعجزة: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾، فالأصغر من الشيء هو محتويات الشيء، والأصغر من الذرة هو محتويات الذرة (إلكترون Electron، بروتون Proton، نيترون Neutron، كوارك Quark... إلخ) ... حقا، إنه كلام العليم القدير الذي يقول في آية أخرى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس]، وفي هذه الآية نقرأ: "من"، وهي لفظة تدل على الأخرى على محتويات الذرة وإمكانية انشقاقها وتجزئتها، لأن "من" للتبعيض.. بل إنك لو عدت إلى النص القرآني الأول لقرأت "عالم الغيب" وذلك قيل أن تأتي كلمة "ذرة"، مما يدل على أن الذرة لا تزال في عالم الغيب، فالإنسان يتعرف عليها بآثارها، لأنه لم يرها رأي العين، أو هي غيب بالنسبة لمعظم الناس حتى وإن عاينها نفر من الباحثين المتخصصين..

كانت هذه أمثلة قليلة سقناها للدلل على أن القرآن الكريم لا يفسره عالم واحد ولا جيل واحد، ولكن كلما اتسعت فنون الثقافة العلمية وكثرت الكشوف وتنوعت الاكتشافات العلمية ظهرت لنا معان عظيمة، وانجلت وتجلت أمامنا أوجه لإعجاز الله البيّنات لم تظهر من قبل... ولنتذكر قاعدة من قواعد التفسير هي: "القرآن يفسره الزمان".

وفي ختام دحض هذه الحجة من حُجج المانعين، أو المنكرين، لتيار الدراسات والبحوث العلمية للآيات الكونية، يقول عمر عبيد حسنة: وقد يكون من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر، وكسر الأقفال، ووضع الأغلال والأصار، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاعتراف منها لعلاج الحاضر، والامتداد صوب المستقبل، واعتماده مصدرا للمعرفة والبعث الحضاري - التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي استمدت من القرآن في العصور الأولى، هي نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص مرتين بها، في كل زمان ومكان، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائما قرين الهوى، وقصر فهمه على عصر معين، وعقل محكوم برؤية ذلك العصر، وحجر على العقل، وتخوف من التفكير، الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه بنص القرآن (٢٦) ... لقد أورتنا مناخ التقليد الجماعي الذي عطل فينا ملكة الاجتهاد، والإبداع، والإنجاز لقرون طويلة نوعا من العجز المزمن، جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن، وإدراك سننه في الأنفس والأفاق، والاقتصار على بضع مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون على أنها الأحكام التشريعية... ولا نزال - إلى اليوم - نبدى فيها ونعيد من خلال ميراث الفقهاء وليس من خلال ميراث موقعها من الرؤى القرآنية، حيث للآيات مقاصد عدة: تربوية، واجتماعية، ونفسية، وكونية، ومنبهات حضارية، ووسائل الكشف العلمي حيث لا يخرج الحكم التشريعي عن أن يكون واحدا منها (٢٧).

٣.٢. دحض الحجة الثانية

إن المعارضين لهذا الاتجاه يتذرعون بأن القرآن كتاب هداية للبشر، ولا شأن له بالعلوم الطبيعية أو البحوث الكونية، وقولهم هذا على جانب من الحق، ولكنه ليس الحق كله، فهو كتاب هداية بالأحكام، كما أنه كتاب هداية بالنظر والتأمل في بديع صنع الله سبحانه وتعالى... ذلك أن الله شاءت حكمته أن ينوع وسائل هدايته لخلقها، لأنه عليم بقدراتهم واستعداداتهم، فهو تارة يخاطبهم بما يمس قلوبهم مسارا رقيقا، وتارة أخرى يفرع عقولهم فرعا شديدا، فكان من أبرز ما جلا به أبصارهم وأثار بصائرهم حضه إياهم على التدبر في آيات خلقه وصنعه، وإلا فما هي الحكمة الربانية من وراء سوق الآيات الكونية في القرآن الكريم، آيات تذكر السموات والأرض، والشمس، والقمر، والمشارق والمغرب، والبروج والنجوم والكواكب، والليل والنهار، والفجر والغسق، والظلمات والنور، والبحار والأنهار والعيون، والرياح اللواقح والريح العقيم، والجدد البيض والحمر والغرابيب السود، والأرض الهامدة والأرض المهترزة الربابية، والجنات والنخيل، والأعنان، والنمل والنحل، والبعوضة، وبيت العنكبوت، والطير الصافات المسخرات المسبحات المبينات، والإبل والخيل والأنعام، واللبن يخرج من بين الفرث والدم... إن كل هذه المكونات الكونية وتلك المخلوقات الحية وغيرها لجديرة بأن يتدبر الإنسان أمورها، ويتأمل في إحكام صنعها، ويتفكر في عظمة خالقها سبحانه وتعالى حتى يصل إلى مرتبة الخشية، فإذا كان من أهل التخصص زادت هذه الخشية، وملا حب الله الخلاق الوهاب قلبه يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ﴾ [سورة فاطر] {٢٧} وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ {٢٨} [سورة فاطر]..

إن فكرة "القرآن كتاب هداية للبشر ولا علاقة له بالكونيات أو العلوم التجريبية" ظهرت مع ظهور النهضة العلمية الحديثة، وقد زاد من رسوخها أن المتعلمين يرون حديث القرآن عن الكونيات حديثا مفرقا للأجزاء بين السور والآيات المختلفة، على غير ما

هو مألوف لديهم في تصنيف الكتب العلمية، فظنوا بذلك أنه لا علاقة ولا رابطة فيما بين أجزاء هذا الحديث في الموضوع الواحد، وقد غاب عنهم أن هذا التفريق إنما هو مقصود في القرآن لحكمة بالغة، وأن هذه الآيات أو الأجزاء المفردة في الموضوع الواحد مثلها مثل الجزئيات والحقائق العلمية التي يقررها البحث العلمي، متفرقة أولاً ثم يكون منها بعد ذلك (بالعلم والاستقراء والتطبيق) الأصول والقواعد العامة... ثم هناك سبب آخر أدى إلى ظهور هذه الفكرة البالية التي ناقشها الآن، ذلك هو إهمال التنقيف الديني في دور التعليم، واقتصاره على الطرق التقليدية التي ظهرت في عهود التخلف الذي اعترى الأمة الإسلامية في القرون الماضية غير الغابرة، ذلك السبب أدى إلى انصراف المثقفين عن كتاب ربهم، وأضحى كثير من الناس على اختلاف درجاتهم العلمية وتخصصاتهم البحثية لا يتصلون بالقرآن سوى بسماعه في المآتم والافتتاحات والطرب للفتن في قراءته من قرآن هذا الزمان الذين أثاروا على حساب القرآن الكريم، يشترون آيات الله ثمناً قليلاً، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢٨)

إن القول بأن (القرآن ليس كتاب علم، وإنما هو كتاب هداية فقط)، ليدل على أن القائلين به ليسوا على دراية بما يحتويه القرآن من سبق علمي وإعجاز علمي، بما لو اطلع عليه علماء الغرب لوفر عليهم سنوات طويلة من البحوث الشاقة لكي يصلوا إلى حقيقة مثل انفلاق الذرة أو انشطارها، وأنها ليست أصغر وحدة في الكون، وقد صرح القرآن بذلك، لكن الألفاظ والكلمات والآيات تحتاج من يفهما فهما صائباً ويستخرج منها بعض كوامنها الثرية، فاللفظة القرآنية بحر ملئ بالنور، وعلى قدر تعلمك للغوص، على قدر ما تجنيه من اللآلئ والدرر الثمينة، وكلما سعيت في هذا البحر بجدٍ ومثابرة كلما عدت إلينا بمحصول وفير... نعم ولا عجب، فالقرآن لن تنتهي عجائبه ولن تنضب معائن أسراره على مر الزمان..

أما الاستدلال بما ورد في رواية معاذ عن الأهلّة وسبب نزول الآية، وأن ذلك دليل على عدم ولوج الكلام في مسائل الأهلّة، وبالتالي المسائل الكونية، فهو معارض لما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية قالوا: سألو النبي ﷺ: لم جعلت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ ... (١٨٩)﴾ [سورة البقرة]، فجعلها لصوم المسلمين وإفطارهم، ولمناسكهم وحجهم ولهدى نسكهم. والله أعلم بما يصلح خلقه. وروي عن الربيع وابن جريج مثل ذلك، ففي هذه الروايات التي ساقها الطبري أن السؤال هو: لم جعلت هذه الأهلّة؟ وليس السؤال: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ثم ينقص. ولذلك فإنه لا دليل في الآية على نفي "التفسير العلمي" لآيات القرآن الكريم (٢٩). ... وعلى أية حال، فقد وردت في القرآن الكريم الدعوة صريحة ومؤكدة إلى التدبر في آيات الله التنزيلية، وكذلك التفكير في آياته التكوينية، لقد أريت آيات الحث على التدبر واستعمال العقل والفكر على خمسين آية، لا يتسع المقام هنا لسردها (٣٠)

٣.٣. دحض الحجة الثالثة

الحجة الثالثة هي قول المعارضين بأن ما يسمى "حقائق العلم" (Facts) ليست سوى فروض (Hypotheses) ونظريات (Theories) يعتقد رجال العلوم فترة من الزمان في صحتها، ثم لا يلبثون أن يثبتوا بأنفسهم بطلانها، ولذلك لا يجوز الرجوع إليها عند دراسة آيات الذكر الحكيم. هذا القول في عمومه غير صحيح من وجوه:

إن الذي يتغير في العلم ليس قواعده، أو حقائقه، بل فروضه ونظرياته التي لا تزال قيد الدراسة والتمحيص، ذلك لأنها تستنبط باستخدام قوى العقل في ظل الثابت من حقائق العلم، وكلما تراكمت المعلومات السليمة عن مكونات الكون، بالرصد والقياس والتتبع، كلما كانت هناك فرصة أكبر لتقوية النظريات أو لتعديلها أو تطويرها حتى ترقى لمستوى الحقيقة العلمية، وإلا فلا داع لتوظيفها في بحث الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم...

لاشك أن الباحثين ورجال العلوم الذين خلصت نواياهم، وأتقن تدريبهم على كيفية التعامل مع الفروض والنظريات والقوانين (Laws) والقواعد (Rules) والملاحظات (Observations) والتجارب (Experiments).. لاشك أن أولئك الذين آمنوا بالله وبرسله ورسالاته، وأحكموا التخصصات الأكاديمية، وتعمقوا في لججها.. لاشك إذا تحدث هؤلاء في أمور الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم يكون ذلك نشاطاً محموداً منهم، وهم مأجورون عليه، ولكن يجب علينا أن ننبه إلى أن رجال العلوم الكونية - كغيرهم - يتفاوتون فيما بينهم من حيث المراس والدراسة والإتقان، وأن هناك فرقاً كبيراً بين استخدام الحقائق العلمية حين الكلام عن آيات القرآن، وبين الاعتماد على الفروض والنظريات، ولنوضح ذلك بما يلي من الأمثلة:

المثال الأول: إن الضوء منذ عهد الحسن بن الهيثم (٣٥٤ هـ/٩٦٥م-٤٣٠ هـ/١٠٤٠م) تراكمت فيه معلومات وحقائق علمية، فتوصل العلماء إلى أن الضوء (ينعكس) أو (يرتد) (Reflects) من الأجسام التي يسقط عليها، ثم عرفوا أنه (ينكسر) (Refracts)، ثم توصلوا إلى أنه (يتشتت) أو (يتناثر) (Disperses)، وأنه (يحيد) (Deviates)، وكذلك (يستقطب) (Polarized).... وهكذا ظهرت في ظل هذه الحقائق عدة نظريات علمية تتعلق بطبيعة الضوء أو كنهه أو حقيقته المطلقة، منها نظرية (الجسيمات الصغيرة جداً) التي قال بها إسحاق نيوتن (Newton) (١٦٤٢-١٧٢٧م)، ثم (النظرية الموجية) (Wave Theory) التي قال بها كريستيان هيجنز (Huygens) (١٦٢٩-١٦٩٥م)، ثم (النظرية الكمومية) (Quantum Theory) لماكس بلانك (Max Planck) (١٨٥٨ - ١٩٤٧م)... إلخ، ولم تثبت حقيقة الضوء على حال حتى الآن!!!

المثال الثاني: معرفة أن الكائن الحي يتكون من عدة خلايا متكاملة متعاونة لأداء وظائف الحياة المكتوبة.. معرفة هذه الحقيقة منذ قرن ونصف قرن لم يبطله ما يتوالى من الكشوف المدهشة مع تقدم المجاهر (الميكروسكوبات) وأدوات البحث والتقني

والتدقيق، فهل اكتشاف الكروموسومات (Chromosomes) أو الليبوسومات (الأجسام الحالة Lysosomes) بواسطة المجاهر (الميكروسكوبات) الإلكترونية أبطل أو هدم النظريات الخلوية التي اكتشفت منذ مائة وخمسين سنة؟!... ثم هل هدمها ما تمّ اكتشافه فيها بواسطة علوم الوراثة (Genetics) والكيمياء الحيوية (Biochemistry) والفيزياء الحيوية (Biophysics) والبيولوجيا الجزيئية (Molecular Biology) من جينات (مورثات) وأحماض نووية وجزئيات ملفوفة، وغير ذلك؟!... ثم النظرية الذرية (Atomic theory) التي عرفها الإنسان قديماً، وهي أن كل عنصر (Element) من العناصر المادية يتكون من ذرات، هل هدمتها الكشوف الحديثة والبحوث حينما توصلت إلى تحديد وجود بروتونات (Protons) وإلكترونات (Electrons) ونيوترونات (Neutrons) وإلى ما هو أدق من ذلك وأعجب مثل الكواركات (Quarks) وغيرها...!!

وقبل الختام نرى من الواجب علينا أن نردّ على عمر عبید حسنة الذي كتب في تقديمه للكتاب (٢٠) من سلسلة كتاب الأمة (دولة قطر) يعرّض بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ويعتبر السعي في جوانب هذا المجال عجزاً من المسلمين عن الإبداع، وقصور منهم عن مواكبة الحضارة العالمية، ووقفاً عند حدود الاحتماء بالميراث الماضي...!! إن عمر حسنة يناصر الرأي القائل بأن القرآن ليس فيه إعجاز علمي أصلاً، وفي نفس المقدمة يتناقض مع نفسه فيؤكد ورود حقائق علمية في القرآن، فكيف يؤكد ما سبق أن رفضه في نفس الفقرة؟! بل، وبعد ذلك بسطور يؤكد أن هذه الحقائق العلمية حين تنزلت في عصر الأمية العلمية كانت ولا تزال دلائل النبوة وبرهان صدقها - على حدّ تعبيره - فكيف به يسقط عجز الأمة اليوم وقصورها في مجالات التقدم التكنولوجي على أمور يعدّ من بينها الليحوت الجارية في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؟! إنه إن كان يخشى أن يستغني بعض المسلمين اليوم بالإعجاز العلمي للقرآن عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمي والتقني، فإننا نقول له: لقد أخطأت في ظنك هذا، ولا مبرر للخشية، فإن الذين يسعون في مجالات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بعمق وكفاءة ومنهجية، هم علماء مشهود لهم، أيضاً، بالكفاءة العلمية في تخصصاتهم الأكاديمية، علماء لو أحسن تتسويق أعمالهم، ولو أعطوا الفرصة الكافية لقاموا بتشبيد حضارة علمية تقنية، يصلون بها ماضي الأمة الزاهر بحاضرها الميرير بمستقبلها المأمول...!!

وختاماً، ينبغي على الباحثين في الإشارات العلمية القرآنية، أو ما يمكن أن نصفهم بالباحثين في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أن يلتزموا بضوابط منهج واضح، حتى لا يسيئوا إلى هذا الكتاب المجيد، وأن لا يتوقفوا عند سلامة النية والقصد، فلا بد من اتخاذ العدة الكافية وامتلاك الأدوات اللازمة للتعامل مع القرآن الكريم... وقد سبق أن اجتهدنا في وضع منهجاً لذلك (٣٢)، ومن أهم ضوابطه: الرجوع إلى المأثور عن الرسول ﷺ في التفسير - الانتناس بالنفاسير المختلفة المعتمدة - التضلع بعلم مساعدة، كعلوم اللغة والبلاغة والبيان وأسباب التنزيل والناسخ والمنسوخ والقراءات، وكذلك أصول الدين - التثبت من المعطيات العلمية، وعدم شرح كونيّات القرآن الكريم إلا باليقيني الثابت من العلوم، لا بالفروض ولا بالنظريات التي هي محلّ فحص وموضع تمحيص، إن لم تكن عرضة للإبطال مع تقدم العلوم وتطور أدوات وتقنيات البحث العلمي وتوالي الكشوف - مراعاة تعدد معاني اللفظ الواحد في القرآن، فإذا أخذ أحد الأسلاف من العلماء بمعنى معين فلا ضير على أحد من المحدثين أن يأخذ بمعنى آخر، يقصد به تعميق مفهوم اللفظ، وبالتالي الآية التي ذكر بها - سبق العلمي وحده غير كاف للاستدلال على إعجاز القرآن - مراعاة تعدد المواضع، فربما تحوي آية قرآنية واحدة ظاهرات كونية عديدة، وربما تأتي لقطات من الظاهرة الكونية الواحدة في آيات قرآنية متفرقة - الإمام بالوحدة الكلية للقرآن - التزام شروط التأويل، مع العلم بأن التفسير أعمّ من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل - علم الموهبة، وهو ذي شقين، فطري مجبول عليه الباحث، وتحصيلي يمكن إحراره بصحة القصد وسلامة النية وتنقية الضمير وتركيب النفس وتطهير القلب، وعند ذلك سيُلقي الله تعالى في روعه معاني لا يستطيع غيره أن يستلهمها...

٤. الخلاصة والاستنتاجات

المانعون "للتفسير العلمي" لآيات القرآن ذات الإشارات العلمية، والمنكرون لبحث الآيات الكونية الواردة بالقرآن، إنما يكتفون بالوقوف عند المعاني الظاهرية فقط لآيات القرآن دون الدخول فيما تتضمنه أو تدل عليه من سبق علمي أو بيان لحقيقة علمية لم يتوصل العلم إليها إلا حديثاً...

القرآن الكريم كتاب هداية للبشر، هداية بالأحكام، وهداية بالنظر والتأمل في بديع صنع الله سبحانه وتعالى، وإلا فما هي الحكمة الربانية من وراء سوق الآيات الكونية في القرآن الكريم...؟!

القرآن الكريم نزل للشريعة حتى يوم القيامة على اختلاف ثقافات عصورها وتنوع علوم أهلها، وهو إذ يخاطب العقول على اختلاف المواهب والثقافات، فإن كل عقل يأخذ منه ما يطيقه وما ينتفع به، فإذا عجزت بعض العقول عن إدراك بعض المعاني وجب علينا أن نستعين بكبار العلماء والباحثين المتخصصين لبيانها...

حينما نستخدم العلوم الكونية والمعارف الطبيعية في تجلية آيات قرآنية وبيان أوجه العظمة ونقاط الإعجاز فيها، إنما نفعل كما يفعل اللغويون وأصحاب البيان، فاستخدام علوم اللغة العربية في بيان أوجه الإعجاز اللغوي القرآني لم يكن موجودا في عصر النبوة، وقد ظهر في عصور متأخرة...

إن الذي يتغير في العلم ليس قواعده، أو أسسه، بل فروضه التي لا زالت تخضع للدراسة والتمحيص، ولاشك أن رجال العلوم الذين خلصت نواياهم، وأتقن تدريبهم على كيفية التعامل مع الفروض والنظريات والقوانين والقواعد والملاحظات والتجارب، واستحكموا من تخصصاتهم الأكاديمية، سيخرجون لنا العديد من الكنوز العلمية المخبأة في أعماق الآيات القرآنية... ولكن يجب علينا أن ننبه إلى أن رجال العلوم الكونية - كغيرهم - يتفاوتون فيما بينهم من حيث المراس والدراسة والإتقان، وأن هناك فرقا كبيرا بين استخدام الحقائق العلمية حين الكلام عن آيات القرآن، وبين الاعتماد على الفروض والنظريات... ينبغي على الباحثين في الإشارات العلمية القرآنية، أو ما يمكن أن نصفهم بالباحثين في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أن يلتزموا بضوابط منهج واضح، حتى لا يسيئوا إلى هذا الكتاب المجيد، وأن لا يتوقفوا عند سلامة النية والقصد، فلا بد من اتخاذ العدة الكافية وامتلاك الأدوات اللازمة للتعامل مع مع أقدس كتاب في الوجود، القرآن الكريم ...

المراجع والحواشي – REFERENCES

- [١] سبق أن عالجتا ثوابت ومتغيرات الدعوة الإسلامية في محاضرة لنا مطبوعة في العدد الثاني من سلسلة كتاب الإعجاز التي تصدرها جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بمصر، ١٩٩٨م/١٤١٨هـ.
- [٢] العمري (د/ أحمد جمال): "مفهوم الإعجاز القرآني- حتى القرن السادس الهجري". دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨٤ م
- [٣] عز الدين (أحمد): "القرآن يتحدى". دار السعادة، ط١، ١٩٧٣م.
- [٤] ابن عاشور (محمد الطاهر): تفسير "التحرير والتنوير". تونس، ١٩٨٤ م.
- [٥] الغزالي (محمد): "كيف نتعامل مع القرآن". سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥). المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب القاهرة، ط ٣، ١٩٩٢م
- [٦] الحديث متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، في كتاب الصيام، باب قول النبي ﷺ: لا تكتب ولا تحسب). ورواه مسلم في صحيحه، في كتاب الصيام. باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال، وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوما.
- [٧] أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود. وكان من كتاب الوحي، وشهد بدرًا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان رضى الله عنه الله عنه بجمع القرآن، فاشترك في جمعه... مات بالمدينة عام ٢١هـ (٦٤٢ م).
- [٨] الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه في (كتاب صلاة المسافرين وقصرها)، باب (فضل سورة الكهف وآية الكرسي).
- [٩] سليمان بن مهران الأسدي، أبو محمد، الملقب بالأعمش، تابعي، مشهور أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة، كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، روي نحو (١٣٠٠) حديث، ولد في عام ٦١هـ (٦٨١م)، وتوفي في عام ١٤٨هـ (٧٦٨م).
- [١٠] هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله، شمس الدين الذهبي، تركماني الأصل من أهل دمشق، شافعي، إمام حافظ مؤرخ، كان محدث عصره، برع في الحديث وعلومه، وكان يرحل إليه من سائر البلاد، ولد في عام ٦٧٣هـ، وتوفي في عام ٧٤٨هـ.
- [١١] الحديث رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في (كتاب الرقاق، باب التواضع).
- [١٢] محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله البخاري، حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، ولد في بخارى، ونشأ بتيما، رحل في طلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ بخراسان والشام ومصر والحجاز وغيرها، ولد في عام ١٩٤هـ، وتوفي في عام ٢٥٦هـ.
- [١٣] هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، من أئمة المحدثين، ولد ببسبور، ورحل إلى الشام ومصر والعراق في طلب الحديث، أخذ عن الإمام أحمد بن حنبل وطبقته، لازم البخاري وحذا حذوه، ولد في عام ٢٠٤هـ، وتوفي في عام ٢٦١هـ.

- [١٤] يلدرم (د/ سعاد): "مستندات التوفيق بين النصوص القرآنية وبين النتائج العلمية الصحيحة". المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي للقرآن والسنة. إسلام آباد- باكستان، ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م).
- [١٥] ولد الشيخ (محمد أمين): "خلاصة بحث التفسير العلمي للقرآن، بين المجيزين والمانعين". المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. إسلام آباد- باكستان، ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م).
- [١٦] "التفسير العلمي للقرآن بين المؤيدين والمعارضين". تحقيق صحافي بمجلة المسلمون (١) ١٤٠٥ هـ/١٩٨١م.
- [١٧] إبراهيم (مدحت): "الإشارات العلمية في القرآن الكريم". مكتبة غريب بمصر، ط١، ١٩٩٣م.
- [١٨] إبراهيم (مدحت حافظ): نفس المرجع.
- [١٩] الذهبي (د/ محمد حسين): نقلا عن بحث للدكتور سعاد يلدرم، المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ١٩٨٧م (مرجع سابق).
- [٢٠] للمزيد من التفصيل، انظر: البار (د/ محمد علي): "الأسرار الطبيعية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير". الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.
- [٢١] حسب النبي (د/ منصور محمد): "الكون والإعجاز العلمي للقرآن". دار الفكر العربي بمصر، ط١، ١٩٨١م.
- [٢٢] الفندي (د/ محمد جمال الدين): "الله والكون". الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٧٦م. وله أيضا: "مع القرآن في الكون". الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٢م. وله أيضا: "الكتاب الكوني أو المعجزة الخالدة"- جزءان. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، ط١، ١٩٩٤م.
- [٢٣] للمزيد من التفصيل، انظر: غنيم (د/ كارم السيد): "إشارات طبية في آيات قرآنية" (ضمن سلسلة "مفاتيح البيان في إشارات القرآن") مطبعة بحر العلوم، الجيزة، ط١، ٢٠١٥م.
- [٢٤] الفندي (د/ محمد جمال الدين): مرجع سابق.
- [٢٥] (د/ كارم السيد غنيم): "إشارات فيزيائية في آيات قرآنية" (ضمن سلسلة "مفاتيح البيان لإشارات القرآن")، تحت الطبع.
- [٢٦] حسنة (عمر عبيد): مقدمة كتاب "كيف نتعامل مع القرآن". المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب القاهرة)، ط٣، ١٩٩٢م.
- [٢٧] حسنة (عمر عبيد): نفس المرجع.
- [٢٨] أخرج الترمذي عن عمران حصين أن النبي ﷺ قال: (من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيحى أقوام يقرأون القرآن ويسألون به الناس) فالذي يؤجر نفسه لقراءة القرآن والتغني به فقد ارتكب إثما كبيرا. للمزيد أنظر: إسماعيل (د/ شعبان محمد) مع القرآن الكريم. مكتبة الحرمين - القاهرة، ط١، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤م.
- [٢٩] ولد الشيخ (محمد الأمين): مرجع سابق.
- [٣٠] (د/ كارم السيد غنيم): "أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام". دار الصحوة بالقاهرة. ط١، ١٩٨٨م.
- [٣١] أنظر ص ٢١ من كتاب: "كيف نتعامل مع القرآن". المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب القاهرة). ط٣، ١٩٩٢م.
- [٣٢] (د/ كارم السيد غنيم): الإشارات العلمية في القرآن الكريم- بين الدراسة والتطبيق. دار الفكر العربي بالقاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

التراجم الشخصية

(*) ا.د/ كارم السيد غنيم: من مواليد محافظة الشرقية- مصر- عام ١٩٥١م. أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر (بالقاهرة)، عضو اتحاد كتّاب مصر، أمين عام جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بمصر. شغل منصب أمين لجنة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر لعدة سنوات... صدرت له كتب وموسوعات عديدة في مجالات الإشارات العلمية في القرآن والسنة، والثقافة الإسلامية، وتبسيط العلوم، إضافة إلى بحوثه الأكاديمية (في علم الحشرات) المنشورة في مجلات علمية عالمية متخصصة. المراسلات Karemghoneim@gmail.com موبايل ٠١١١١٤٢٣٤١٦.

(**) أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) هو أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، من علماء الأندلس، وقد تتلمذ على أيدي الكثير من العلماء من شيوخ الغرناطيين والوافدين. ومن تلاميذه العلامة أبو يحيى بن عاصم، والقاضي الفقيه أبو

بكر بن عاصم، والفقيه أبو عبد الله البيهقي، وأبو جعفر القصار، وأبو عبد الله المجاري. من كتبه المطبوعة: كتاب الإفادات والإنشادات. كتاب الاعتصام في أهل البدع والضلالات. كتاب المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية... وكتابه الشهير الذي رجعنا إليه في بحثنا الحالي هو: "الموافقات في أصول الشريعة" (تحقيق: عبد الله دراز - محمد عبد الله دراز، دار الكتب العلمية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

(*** الدكتور/ محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٧ هـ): ولد في محافظة كفر الشيخ- مصر. حصل على الدرجة العالمية (الدكتوراه)، في علوم القرآن من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر. عمل أستاذاً في كلية الشريعة جامعة الأزهر ثم أستاذاً في كلية أصول الدين ثم عميداً لها ثم أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية، ثم أصبح وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر... من أهم مؤلفاته: التفسير والمفسرون. الوحي والقرآن الكريم. تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره. الإسرائيليات في التفسير والحديث. أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع. عناية المسلمين بالسنة. مدخل لعلوم الحديث والإسلام والديانات السماوية... والكتاب الذي رجعنا إليه في استطلاع رأيه في دراسة وبحث الإشارات العلمية للقرآن الكريم هو "الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم- دوافعها ودفعها"، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط ١، ١٩٨٦م.

(**** محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ): هو محمد رشيد بن علي رضا، ولد في قرية القلمون (لبنان)، حفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس (لبنان)، تعلم فيها اللغة العربية والعلوم العربية والشريعة والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية... انتقل إلى القاهرة وتلمذ على يدي الشيخ محمد عبده، وذاع صيته، حتى أصبح مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. أسس مجلة المنار على نمط مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الإمام محمد عبده، ويعتبر حسن البنا أكثر من تأثر بالشيخ محمد رشيد رضا.

(***** محمد مصطفى المراغي (ت ١٣٦٤ هـ): هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي القاضي الحسيني، وينتهي نسبه الشريف إلى الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. ولد في مركز المراغة، محافظة سوهاج بصعيد مصر. عالم أزهرى وقاض شرعي مصري، شغل منصب شيخ الأزهر في الفترة من ١٩٢٨م حتى استقالته في ١٩٣٠م، ثم تولى المشيخة مرة أخرى عام ١٩٣٥م وحتى وفاته.

(***** الدكتور/عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٣ هـ): هو عبد الكريم محمود يونس الخطيب، ولد في محافظة سوهاج (من صعيد مصر). تخرج من دار العلوم (جامعة القاهرة)، ومن الأعمال التي شغلها مدير مكتب وزير الأوقاف للشؤون العامة بمصر... بعد إحالته إلى المعاش عكف على كتابة الدراسات والبحوث، فأصدر مجموعة من المؤلفات الدينية والأدبية، إلى جانب المئات من المقالات في الصحف المصرية والعربية، والمئات من الأحاديث الدينية في الإذاعات المسموعة والمرئية في مصر، وفي السعودية... من أبرز مؤلفاته: التفسير القرآني للقرآن. التعريف بالإسلام في مواجهة العصر. قضية الإلوهية بين الفلسفة والدين. الإعجاز في دراسات السابقين. الإعجاز في مفهوم جديد. الإسلام في مواجهة الماديين الملحدين.

يسمح بالاقتراب والاستشهاد بالبحث وأجزاء منه مع الاستشهاد به كما مدون في هامش الصفحة الأولى من هذا البحث (مع ذكر المؤلف والمجلة). كما يسمح بالطباعة والتوزيع عدا التوزيع التجاري.
© جميع الحقوق محفوظة للمجلة الأكاديمية للإعجاز العلمي.